الحراقة في الجزائر دراسة لسانية اجتماعية

الدكتور رضا دغبار

جامعة الجزائر 01

الملخّص:

تعتبر ظاهرة **الحراقة** أو الهجرة السرية في الجزائر من الموضوعات الحسّاسة التي شغلت بقوّة بال السلطة الجزائرية والمجتمع عمومًا في ظلِّ التزايد الرهيب والمستمر لعدد المقبلين عليها، وهذا ما جعل الدراسات الإنسانية والاجتماعية والقانونية تتهافت عليها محاولة البحث في خلفياتها وأسبابها، وكذا اقتراح طرق محاربتها أو التقليل منها، غير أنّ المختصين اللسانيين عمومًا واللسانيين الاجتماعيين خصوصًا لم يهتموا بدراسة هذا اللفظ الشبابي المميّز والجذّاب، وهذا ما أثار فضولنا العلمي فحاولنا دراسته دراسة لسانية اجتماعية لعلّنا نقدّم إضافة -ولو كانت بسيطة- قد تساعد المختصين في العلوم الإنسانية والاجتماعية والقانونية... في حلّ بعض شفرات الظاهرة والتقرّب منها أكثر.

Abstract:

The phenomenon of Harraga or the secret immigration in Algeria is one of the sensitive issues that have preoccupied the Algerian authorities and the society at large in light of the huge and continuous increase in the number of those coming to it. This has made the humanitarian, social and legal studies rush to try their background and causes. However, the linguists in general and the social linguists in particular did not care to study this distinctive and attractive youthful pronunciation. This aroused our scientific curiosity. We tried to study a social linguistic study. Perhaps we would add an addition - if it were simple These specialists in the human, social and legal sciences may help solve some of the symbols of the phenomenon and get closer to them.

المقدّمة:

لا شكّ أنّ **الحراقة** أو الهجرة السريّة l'IMMIGRATION CLANDESTINE هي موضوع من موضوعات الساعة الملفتة للنّظر والشائكة جدّا، وقد أصبحت ظاهرة معقّدة للغاية باتت تؤرق ساسة البلدان الغربية والأوروبية والإفريقية خاصّة ومنظّمات حقوق الإنسان والمجتمع

الدولي عامّة، أمّا في الجزائر فقد مسّت شريحة مهمّة من أبناء المجتمع الجزائري، ولم تعد تقتصر على فئة الشباب الذكور فحسب، بل امتدّت لتشمل بعض: الأطفال القاصرين والكهول وكبار السنّ والفتيات والنساء المتزوّجات وأبنائهن الصغار الذين لم تتجاوز أعمار بعضهم السنةَ، لهذا استحوذت الظاهرة على قلوب العديد من الأسر الجزائرية خاصّة من أهالي **الحراقة**، وشكّلت إحراجًا كبيرًا للسلطة الجزائرية بعد تعرّض وسائل الإعلام الوطنية والأجنبية ومنظّمات حقوق الإنسان والمختصّين الاجتماعيين والنفسانيين والقانونيين ورجال الدّين وغيرهم للظاهرة ولآثارها الوخيمة على حياة **الحراقة** غير أنّ المختصّين اللسانيين واللسانيين الاجتماعيين على الخصوص لم يهتمّوا بهذا اللفظ(أو المصطلح عند الشباب) ولم يُعْنُوا بدراسته دراسة لسانية أو لسانية اجتماعية أو دلالية أو سيميائية، والبحث في خلفيات توظيفه التي شغلت بالنا كثيرًا فحاولنا في هذه العجالة تفسير تجاذباته وخلفياته وتجلياته اللسانية الاجتماعية كلفظ شبابي جزائري بامتياز، وكيفية توظيفه ورواجه بينهم، ومدى تأثيره فيهم.

أوّلاً-الإشكالية:

حقيقة إنّ ظاهرة **الحراقة** من الظواهر الاجتماعية التي أصبحت في الجزائر مشكلاً عويصًا يثقل كاهل السلطة والأسر الجزائرية على السواء يصعب حلّه أو التقليل منه في ظلّ انعدام الآليات والظروف التي من شأنها أن تقنع الشباب بعدم الإقبال على **الحراقة** أو تمنعهم من القيام بهذا الفعل الذي يُعتبر جريمة في القوانين الوطنية والدولية، وبالتّالي محاربة استعمال وترويج هذا اللفظ الذي أخذ أبعادًا نفسية واجتماعية خطيرة لدى شبابنا، وهذا ما يجعلنا نطرح التساؤلات التالية: ما هي الخلفيات اللغوية والتاريخية للفظ **الحراقة؟**، وكيف وُظِّف هذا اللفظ ولقي رواجًا كبيرًا في وسط الشباب الجزائري؟ ثمّ إلى أيّ حدٍّ يؤدي هذا اللفظ وظيفة تواصلية بين الشباب؟، وما السرّ في جاذبيته لهم؟ وكيف استطاع أن يفرض وجوده في فضائهم الاجتماعي واللغوي بهذه القوّة والرمزية مقارنة بمصطلحات أكاديمية أخرى مرادفة له كالهجرة السرية الهجرة غير الشرعية أو غير المشروعة والهجرة غير القانونية؟ وما هي الأسباب والخلفيات غير اللغوية التي أدّت إلى بروز **الحراقة** كظاهرة استحوذت على عقول وقلوب الكثير من الشباب الجزائري؟

ثانيًا- الحَرَّاقَة مقاربة لغوية اصطلاحية:

أ- الحَرَّاقَة لغة:

إنّ **الحَرَّاقَةَ** HARAGA أو **الحَرْقَةَ**HARGA بحرفG-وهي في المملكة المغربية تُنطق الحَرّاكَة أو الحَرْكَة بالكاف بدل القَّاف- هي عملية أو حركة الهجرة السريّة، ويدلّ هذا اللفظ أيضًا على مجموعة الأشخاص الذين يقومون بهذه العملية، أي المهاجرين غير الشرعيين والذين يحلو للشباب الجزائري إطلاق عليهم لفظ **الحَرَّاقِينْ**، وهي صيغة جمع على وزن فعّالين، ومفردها **حَرَّاقْ** على وزن فعّال، **فلُغَةً** لفظُ **الحَرَّاقَة** أو **الحَرْقَة** مأخوذ من الفعل الثلاثي المجرّد حرق بالقاف، بخلاف **حَرَّاقَة أو َحَرْقَة** فهي تنطق بحرف "القَّاف"-بثلاثة حروف مركّبة على شكل مثلّث- ولا تُنطق أبدًا بحرف "القاف"، وربّما يعود ذلك إمّا لثقل استعمال لفظ **حراقة** بالقاف، أو أنّ استعماله في بداية ظهوره كان بـِ"القَّاف"من طرف شباب لا ينطقون بحرف

"القاف" بل ينطقون بحرف "القُاف" الذي يعتبر من الناحية الصوتية تنوّعا وظيفيا لحرف "القاف" الذي يُعتبر حرفًا من حروف القلقلة، الشديد والمجهور[1]، سواء كانوا من سكان مدينة الجزائر العاصمة أم من ضواحيها أو حتّى من ولايات أخرى، حيث نجد مِنْ بعض سكان وسط العاصمة مَنْ ينطقون أحيانًا "القاف" "قًا" لأسباب اجتماعية وجغرافية يطول شرحها علمًا أنّ حرف (القاف): "قد يكون في النطق القديم شبيهًا بالقُاف (وهي تقريبا قاف البدو أو جيم مصر) فنحن نلاحظ أنّ البدو -وهم أكثر قربا من النطق القديم- يستعملون "القُاف" حيث يستعمل أهل المدن والحواضر "القاف"[2].

ولفظ **الحرّافة** من الناحية الصرفية صيغة مبالغة على وزن فعّالة وهي صيغة عربية أصيلة للفظ عامي، وهي اسم مشتقٌّ من الفعل حرق للدلالة على معنى اسم الفاعل مع تأكيد المعنى وتقويته والمبالغة فيه، فالفرق بين صيغة المبالغة وصيغة اسم الفاعل أنّ هذه الأخيرة تدل على من قام بالفعل، أمّا صيغة المبالغة فتختلف عن صيغة اسم الفاعل في الدلالة على تكثير الفعل والمبالغة فيه وتأكيده[3]، فالدلالة الصرفية: لكلمة كذّاب مثلاً تزيد في دلالتها على كلمة كاذب، وقد استمدّت هذه الزيادة من تلك الصيغة المعيّنة، فاستعمال كلمة كذّاب يمدّ السامع بقدر من الدلالة لم يكن ليصل إليه أو يتصوّره لو أنّ المتكلّم استعمل (كاذب)[4]، والأمر نفسه يصدق مع صيغة المبالغة في لفظ **الحَرَّافَة** فهو يفيد الكثرة والمبالغة والزيادة في المعنى.

أمّا **الحَرْفَة**(جمعها **حَرْفَاتْ**) فهي أقل استعمالا نسبيًا عند شبابنا مقارنة بـ: **حَرَّافَة** بالألف والراء المشدّدة، وربّما يعود السبب في ذلك إلى أنّ صيغة المبالغة للفظة **حَرَّافَة** تؤدي دلالة أكثر في نفوسهم، وهي دلالة الحُرقَة على بلاد الغرب عموما وأوروبا خصوصًا، لهذا اخترنا استعمال هذا اللفظ الأخير(**حَرَافَة**) في دراستنا، كما أنّ لفظة **حَرْفَة** عامية لا وجود لوزنها أو لصيغتها في اللغة العربية الفصحى، فهي (**حَرْفَة**) مأخوذة من الفعل الثلاثي الصحيح حَرَقَ الذي مصدره حَرْقٌ، وليس أيضًا من حَرِقَ الذي مصدره حَرَقٌ، وحرَقَ يَحرُق ويحرِق حَرْقًا، أمّا **حَرْفَة** التي يجمعها شبابنا على **حَرْفَات** فإنّها في الاستعمال العامي في هذا المقام أخذت صيغة مصدر عامي فقط.

ب- الحَرَّافَةُ اصطلاحا: هي مرادفة لمصطلحات الهجرة السريّة، أو الهجرة غير الشرعية، أو غير المشروعة، أو غير القانونية، غير أنّ رمزية استعمالها مقارنة بهذه المصطلحات في أوساط الشباب تحمل دلالات خاصّة: نفسية، عاطفية، اجتماعية، اقتصادية، وسياسية، ذلك أنّ

---

[1] -كمال محمّد بشر، علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2000، ص378.

[2] -الطيّب البكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، الطبعة الثالثة، تونس1992، هامش ص42.

[3] -كمال حسين رشيد صالح، صيغ المبالغة وطرائقها في القرآن الكريم دراسة إحصائية صرفية دلالية، أطروحة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، بجامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، نابلس، فلسطين 2005، ص14.

[4] -إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو المصرية1984، ص47.

تعريف الهجرة غير المشروعة ثابت في المواثيق الدولية بأنّها "الانتقال من الوطن الأم إلى الوطن المهاجر إليه للإقامة فيه بصفة مستمرة بطريق مخالف للقواعد المنظِّمة للهجرة بين الدول طبقاً لأحكام القانون الداخلي والدولي"[1]، مهما كانت أسباب هذه الهجرة غير القانونية مثلها في ذلك مثل **الحَرَّاقة** التي يتخذ أصحابها سبلاً ملتوية تخالف القوانين الوطنية والدولية في مجال انتقال الأشخاص من بلد لآخر لسبب أو لآخر.

إنّ **الحرّاقة** كما يوحي اسمها هي هجرة غير قانونية من الجزائر إلى إحدى دول الضفّة الأوروبية خاصّة إيطاليا وإسبانيا، أو اتخاذ هذين البلدين كمنطقتي عبور نحو دول أوروبية أخرى كألمانيا، إنجلترا، وهولندا وغيرها، وذلك عن طريق البحر بواسطة زوارق مطاطية أو قوارب الصيد أو بعض القوارب الأخرى التي عادة ما تكون صغيرة أو متوسّطة الحجم، بمحركات صغيرة ومجاديف مقابل دفع أموال باهظة قد تصل إلى400000دج أو أكثر للفرد الواحد، إلاّ أنّها تتميّز بحمل على متنها عددٍ كبيرٍ من **الحرّاقة**، وفي معظم الأحيان أكثر ممّا تستطيع حمله، ولا يتمّ خروجها إلاّ ليلاً هروبا من مراقبة خفر السواحل، وهي مهمّة خطيرة جدّا ومغامرة تسبّبت كثيرًا في موت الشباب **الحَرَّاقْ** في أعماق البحر لعدّة أسباب منها غرق القوارب بسبب اضطراب الأحوال الجوية وهيجان البحر، أو التيهان في عرض البحر، أو البرودة الشديدة...

أمّا سبب تسمية **الحرّاقة** فيعود إلى نهاية الثمانيات وبداية التسعينيات من القرن الماضي، حيث كان يتسلّل بعض الشباب في العاصمة إلى بواخر السلع الراسية في ميناء العاصمة ليلاً والاختباء في إحدى الحاويات أو الشاحنات أو السيارات التي تحملها تلك البواخر...، وقد يكون ذلك بإعانة أو تواطئ من أحد عمال الحراسة بالميناء أو العاملين في الباخرة مقابل دفع أموالٍ(رشوة)، ثمّ حرق الوثائق الرسمية خاصّة جواز السفر وبطاقة الهوية بمجرّد الوصول إلى إحدى الدول الأوروبية حتّى لا يتمكّن رجال الأمن بالدول المهاجر إليها من كشف هويتهم وجنسيتهم وإرجاعهم إلى الوطن.

كما يدلّ أيضًا اسم **حرّاقة** على تخطي (حرق) الحدود البحرية الدولية والإقليمية للدول بطريقة غير مشروعة إلى أراضي إحدى الدول الأوروبية، وحرق كلّ ما له صلة بماضي الحياة الاجتماعية للشباب في الجزائر، مخلّفين وراءهم حرق الكثير من قلوب الأمّهات والآباء وأفراد العائلة.

كما يدلّ أيضًا على سفر الشباب الجزائري إلى إحدى الدول الأوروبية والغربية بطرق شرعية وبتأشيرات قانونية غير أنّهم لا يحترمون المدّة القانونية لتلك التأشيرات، حيث يتجاوزونها عن قصدٍ فيصبحون **حرّاقة**، أي مقيمين بطريقة غير شرعية في البلدان المُهَاجَرِ إليها، وعدد هؤلاء كبيرٌ جدّا أيضًا.

[1] الشرطة القاهرة بحوث مجلّة علميا، القضائية والرقابة الأجانب إبعاد قرارات الله، فتح طارق -خضر 2003، ص32.

ومعلوم أنّ ظاهرة **الحرّاقة** ليست وليدة الحاضر أو الماضي القريب بل هي قديمة، غير أنّها أصبحت في السنوات القليلة الماضية بأعدادٍ كبيرة جدّا، حيث لا يكاد يمر يوما إلاّ وتظهر عشرات إن لم نقل مئات الحراقة الجدد سواء عندنا في الجزائر أم في الشام والخليج أم في الدول الإفريقية الأخرى مع الذين فرّوا إلى أوروبا من مناطق التوتّر والحروب والفقر كسوريا، ليبيا، تونس، العراق، مالي، النيجر، ليبيريا، الصومال... ولم تعد تقتصر على الشباب من الطبقات الاجتماعية المحرومة والفقيرة بل تعدّته إلى أصحاب الشهادات والحرف والمهن المختلفة ومن فئات عمرية متباينة، ومن جنسيات وأعراق ومستويات ثقافية واقتصادية متفاوتة[1].

ثالثًا- القيمة الرمزية والدلالية للفظ الحرّاقة لدى الشباب الجزائري

إنّ "القيمة الدلالية للكلمة تكمن في معناها"[2] ومدى ارتباطها الروحي بالمتكلّمين ودرجة استعمالها ورواجها بين النّاس، ولهذا فإنّ القيمة الرمزية لكلمة **حَرَّاقَة** تستمدّ من درجة رواجها وانتشارها في أوساط الشباب الجزائري، لأنّ عملية إنتاج معناها تستوجب وجود عوامل ترتبط ارتباطا وثيقا بالحالة النفسية والسوسيولوجية لهذه الكلمة،التي استعملت في الأغاني الشبابية كثيرا أيضًا.

فقد شكّلت **الحَرَّاقَة** لدى الشباب حركة وديناميكية خاصّتين سيطرت عليهما لغة خاصّة وخلقت هيمنة واضحة لهذه اللغة على تفكيرهم وفاعليتهم الاجتماعية كما يسميها سابير أو ما أصبح يُعرف عنده لاحقًا بالحتمية اللغوية، فقد تكوّنت لديهم لغة تحتوي على ألفاظٍ خاصّة تُعبّر عن عالم **الحَرَّاقَة** بقوّة، وهي تعبّر أيضًا عن حقيقة التمايزات اللغوية التي تنتج بدورها تمايزات ثقافية أساسها عوالم مختلفة[3] عن بقية الفئات الاجتماعية الأخرى بما فيهم الشباب الذين لا تستهويهم **الحَرَّاقَة** ، لأنّ تلك التمايزات الثقافية خلقت لهم عوالم خاصّة بهم، وعالم الشباب كما هو معلوم عالم مغاير تمامًا لعالم الكبار، وبالتّالي هذا ما يخلق علاقة خاصّة بينهم قد يسودها أحيانا التوتّر[4]، فيتحوّل هذا التوتّر بينهما إلى جوٍّ يُطبع بما يُعرف بصراع الأجيال أو فجوة الأجيال، حيث تتضارب كلّ القيم المتوارثة بين جيلين مختلفين تمامًا، جيل شباب يسعى إلى تغيير واقعه الاجتماعي بما يحمل من مُثل وقيم وعادات وتقاليد يراها بالية لا تصلح لعصر العولمة، ومتعلّق بما يجري في العالم حوله من تطوّرات حضارية ومدنية تُغري الشباب من جهة، وجيل قديم تقليدي محافظ يمثّله الآباء والكبار يعمل بكلّ ما لديه من وسائل للحفاظ على

[1] -عز الدين مختار فكرون وعلي مفتاح الجد، واقع الهجرة غير الشرعية، مجلّة دراسات الاقتصاد والأعمال، المجلّد 6، العدد1، جامعة مصراتة، ليبيا، يونيو2017، ص133.

[2] -غيرو بيار، علم الدلالة، ترجمة أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات، بيروت1986، ص6.

[3] -مجي الدين محسب، اللغة والفكر والعالم، دراسة في النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقّق، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان 1997، ص19.

[4] -فاطمة الزهراء حباب، علاقة الأبناء بالوالدين في سنّ المراهقة-دراسة ميدانية بمدينة البليدة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم الاجتماع، الجزائر 2005-2006، ص26.

موروثه الثقافي والحضاري وقيمه الروحية التي تمثّل هويته، وشخصيته، وماضيه وماضي آبائه وأسلافه من جهة أخرى[1].

رابعًا-وظيفة لفظ الحَرَّاقَة في الخطاب اليومي الشبابي

لقد أصبحت ظاهرة **الحَرَّاقَة** موضةَ العصرِ عند الشباب الجزائري الذي يرى في العالم الغربي وأوروبا الجنّة الموعودة التي ستحقّق لهم حلمهم الوحيد في المستقبل الزاهر ورفاهية الحياة الاجتماعية، في ظلّ سواد وضبابية مستقبلهم في وطنهم الأم، فكثير من شبابنا في كلّ ربوع الوطن: شرقًا وغربًا، جنوبًا وشمالاً بات شغلهم الشاغل الهجرة إلى الخارج، وأصبحوا ينتظمون في جماعاتٍ العامل المشترك الوحيد الذي يجمعهم هو **الحَرْقَة**، سواء عن طريق البحر في حدود إقليمنا البحري، أم عن طريق السفر عبر الحدود البرية الشرقية-عنابة، القالة، القل وسكيكدة والغربية(الغزوات، بني صاف، ووهران، مستغانم، وتنس)[2]-بطريقة شرعية أو بطريقة غير شرعية أيضًا بالتسلّل عبر الحدود- إلى تونس أو ليبيا أو المغرب لركوب البحر عبر ما يسمّى بقوارب الموت إلى إحدى الشواطئ الأوروبية، متّخذين في ذلك عدّة شعارات تحمل رمزية لها دلالات اجتماعية وسياسية ونقدية منها: 1-"كَرْتُونْCARTON في رُومَا خِيرْ مِنْ فِيلاَ في الحُومَة"(دلالة على النوم في الأرض فوق كرتون-نوع من الورق الخشن تصنع منه عادة عُلَبُ التغليف- في مدينة روما الإيطالية أفضل بكثير من امتلاك فيلا فاخرة في حيّهم)، 2-"بُوطُو POTEAU في رُومَا ولاَ الرُجُوع إلى الحُكُومَة"(أي الاتكاء على عامود كهربائي في مدينة روما أفضل من العودة إلى الحكومة-المقصود بها السلطة أو النظام الحاكم في الجزائر-، حيث يمثّل العمود الكهربائي والحائط في الاستعمالات اللغوية للشباب دلالة رمزية على البطالة التي كانت مستفحلة بينهم في الثمانينات ومنتصف التسعينيات من القرن الماضي، لهذا أطلقوا على أنفسهم لفظ لِي حِيطِيسْتْ LES HITISTES-نسبة إلى حِيطْ أي حَائِطْ +LES الدالة على الجمع+اللاحقة الفرنسية ISTES وهي الصفة التي أصبحت تستعملها الصحافة الوطنية كنقد سياسي لأوضاع الشباب عمومًا حينذاك)، 3-يَاكُلْنِي الحُوتْ وْمَا يَاكُلْنِيشْ الدُودْ، أي(أفضّل الموت في أعماق البحر وأن يَأْكُلَنِي الحُوتُ فيها أفضلُ من الموتِ البطيء في الجزائر وأُدْفَنُ في التُرَابِ ويَأْكُلَنِي الدُودُ في القبرِ)، وهذا يدلّ على درجة إحباطٍ ويأسٍ اجتماعي فظيعين[3] جدًّا بلغهما الكثير من شبابنا الذين أصبحوا يغامرون ويخاطرون بأغلى ما يملكون (حياتهم) في قوارب أصبحت تُعرف في الأدبيات الصحفية والاستعمالات الاجتماعية وحتّى السياسية باسم قوارب الموت(وهي في ذاتها تصوّر بَشاعَةَ الأوضاعِ النفسيةِ والاجتماعيةِ التي دفعت شبابنا

---

[1] -سليمان دحماني، ظاهرة التغيّر في الأسرة الجزائرية-العلاقات-مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في الأنثروبولوجيا، كلية الأدب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، فرع الأنثروبولوجيا، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر 2006/2005، ص96.

[2] -إسماعيل حفصاوي، الحراقة: المعاش والتصوّرات، كلية العلوم الاجتماعية، قسم علم النّفس وعلوم التربية، المدرسة الدكتورالية، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في علم النّفس، تخصّص: علم النفس الجماعات والمؤسسات، جامعة وهران –السانية-، الجزائر2011-2012، ص20.

[3] -إسماعيل حفصاوي، المرجع السابق، ص56.

إلى الاستعانة بقوارب للسفر لا تتوفّر على أدنى أساسيات الأمن البحري، وهم متيقنون أنّ حياتهم فيها معرّضةٌ لخطرٍ كبيرٍ جدًّا، وقد يكون مآلهم بنسبة عالية الموت المحتوم، وهذا انتحار واضحٌ ولكنّهم لا يتردّدون في دفع أموال طائلة من أجل السفر على متنها لأنّها الحل الوحيد في ظلّ صعوبة أو استحالة الحصول على تأشيرة رسمية من إحدى الدول الأوروبية والغربية)، حيث غرق منها الكثير من القوارب والمهاجرين السريين على السواء، وقد توفي عشرات الآلاف منهم في عرض البحر، وهذا ما تُعلن عنه باستمرار مختلفُ وسائل الإعلام الوطنية والعالمية وما خفي أعظم-حيث توفي على سبيل المثال لا الحصر أكثر من 700**حرَّاقًا** جزائريًا في شهر أوت الماضي بالشواطئ الليبية- إلاّ أنّ ذلك لم يُثنِ من عزيمة الكثير من شبابنا على الهجرة السرية، بل إنّ عددًا كبيرًا منهم حاولوا مرارا وتكرارا الهجرة السرية-وكان الكثير منهم تحت تأثير تناول المخدرات والحبوب المهلوسة- فقُبِضَ عليهم في إحدى البلدان الأوروبية وخاصّة إسبانيا وإيطاليا واليونان (قادمين إليها من تركيا) وسجنوا-ومنهم من ماتوا في السجون ودفِنوا في أحسن الأحوال بمقابر النصارى إذا وُفرت رسوم دفنهم وإلاّ أُحْرِقَتْ جُثثهم- أو أعيدوا إلى أرض الوطن، ولكن بالرغم ممّا لحقهم من أذى وإرهاق ومخاطر كبيرة جدّا لم يتوقّف الكثير من المبعدين منهم أبدًا عن محاولة الهجرة السرية من جديد ولو كلّفهم ذلك حياتهم[1]، وهذا ما يحتاج إلى دراسات معمّقة في مختلف التخصّصات الإنسانية والاجتماعية والسياسية وغيرها لمعرفة الأسباب الحقيقية والخفية للظاهرة، وكذا إعادة نظر جذرية في سياسة السلطة للظاهرة وللشباب على السواء لإيجاد حلول نهائية لهما.

كما أصبح لفظ **الحَرَّاقَة** موضةً لغوية أيضًا وكان شبابنا قديما يردّدون شعار: "تَاجَرْ وْلاَ هَاجَرْ وْلَا دِيرْ كِيْ مَاجَر أي"(مارس التجارة أو اِلْعَبْ كرة القدم مثلما فعل اللاعب الدولي الجزائري الأسطورة السابق رابح ماجر لأنّ هاتين الوظيفتين تذران على صاحبهما أموالاً طائلة أو الهجرة إلى الخارج بلد الجنّة الموعودة كما يعتقدون، وهذا في الحقيقة يوحي بوعي نقدي، سياسي، اجتماعي، واقتصادي كبير لدى الشباب وإن كان في مضمونه أيضًا يرمز إلى اعتقادهم بعدم جدوى الدراسة بالجزائر في ظلّ البطالة الخانقة والأزمة المتعدّدة الجوانب التي كانت تعيشها الجزائر حينذاك وضبابية مستقبلهم، حيث كانوا يردّدون أيضًا مقولة: "لِيْ قْرَا قْرَا بَكْرِي": أي الذي دَرَسَ دَرَسَ قديمًا، في زمن الرئيس الراحل هواري بومدين الذي كان يشجّع الشباب ويعينهم على الدراسة، وهي دلالة على عدم جدوى الدراسة اليوم-وهذا يطول شرحه لأنّه بحاجة إلى دراسة خاصّة ومستقلّة-)، وكذلك "جَانَا بَابُورْ(باخرة) من L' Australie حَاوْزُو(طرده) شَادْلِي رَانَا ضَايْعِينْ"(وتعود هذه المقولة التي كانت تُردّد على أفواه الشباب في ملاعب كرة القدم إلى نهاية الثمانيات من القرن الماضي، حيث قَدِمَتْ سفينةٌ من قارة أستراليا في عهد الرئيس الراحل الشاذلي بن جديد ورست بميناء الجزائر العاصمة لأخذ الشباب للعمل في أستراليا تحت صيغة l' immigration فرفض الرئيس الشاذلي ذلك فأصبح هذا الشعار يردّد على ألسنة الشباب ليُعبّروا من خلاله عن استيائهم وضياعهم الروحي والاجتماعي والنفسي والاقتصادي..)، هذا إلى جانبِ شعارٍ آخرٍ كان يُردِّده الشباب هو: "هُومَا وْلاَ نْتُومَا"، أي هُمْ وليس أنتم، ويقصدون بذلك التمرّد على سلطة النظام الحاكم في الجزائر الذي لم يكن عادلا حسبهم، حيث يفضّلون سيطرة الأنظمة الغربية العادِلة في أوروبا والغرب عمومًا-كما

[1] -إسماعيل حفصاوي، المرجع السابق، ص22.

يصفون-على حكم النظام الجزائري، وهذا ضمنيا وشكليًا يمثّل نقدا لغويًا وسياسيا واجتماعيا لطريقة الحكم في الجزائر، وعدم وجود رؤية واضحة تُعمّق ارتباط الشباب بوطنهم بدل إكراههم على مغادرته والنّفور منه وتركهم للغالي والنّفيس بهذه الطريقة البشعة والخطيرة جدّا، إلى جانب شعار آخر أيضًا: "الجوع ولا الرجوع"، أي تقبّل مرارة الجوع في أوروبا أفضل من العودة إلى الحياة في الجزائر...

إنّ من وظائف اللغة كما هو معلوم أنّها أداة أو وسيلة الإنسان عموما في تحقيق العملية الإبلاغية أو التواصلية في كنف المجتمع، ممّا يجعل التعايش الاجتماعي يتحوّل إلى مؤسسة إنسانية تتحلّى بكلّ المقوّمات الثقافية والحضارية[1]، وهذا ما يؤكّد قول عثمان بن جنّي بأنّ اللغة أصوات يُعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم[2]، وأنّ وظيفتها المركزية عند الإنسان هي التواصل مع غيره من النّاس وتبليغ تجربته الخاصّة والشخصية دون نفي وجود وظائفها الأخرى[3]، والشباب الجزائري باعتبارهم جزءً لا يتجزّأ من المجتمع لهم مقوّمات ثقافية وحضارية مستمدّة أحيانا من مجتمعهم، نشأوا عليها في إطار تنشئتهم الاجتماعية، وأخرى اكتسبوها في عالمهم الشبابي الخاص الذي تأثّر بعوامل داخلية خاصّة بهم، أي تتعلّق بشخصيتهم الذاتية باعتبارهم شبابًا لهم خصوصيات ومميّزات كالتمرّد على كلّ سلطة مهما كان نوعها، التطلّع إلى غدٍ أفضل، الرغبة الأكيدة والجامحة في التغيير، نبذ كل ما هو روتيني، التمرّد على القديم وعلى القيم المتوارثة، الإحساس بالمسؤولية، حب الاعتماد على النّفس الجرأة، القلق على المستقبل، الإقبال على الأفكار الجديدة وحب المغامرة والزعامة، وهذا ما شكّل لهم حالة من عدم التوافق مع البيئة...[4] وعوامل أخرى أنتجتها الإغراءات المختلفة التي تأتيهم من العالم الغربي عن طريق وسائل الإعلام المختلفة ووسائل التواصل الاجتماعي، فتأثّروا تأثّرا كبيرًا بما يجري في العالم الغربي من حولهم، حتّى أصبحوا يعيشون حالة اغتراب في وطنهم، فخلقوا لأنفسهم عالما خاصًّا بهم، ولغة يُعبّرون بها عن همومهم ومشكلاتهم وتطلّعاتهم إلى المستقبل ونقدهم للأوضاع السائدة، واختاروا من هذه اللغة ألفاظًا أكثر جُرأة وقدرة على التبليغ عن تطلّعاتهم إلى حالٍ أفضل، من بينها لفظة **الحَرَّافَة** التي لو اجتهدت المجامع اللغوية المتخصّصة مجتمعة، ولو اجتمع علماء الاجتماع وعلماء النّفس وعلماء اللسان من أجل صياغة لفظة أكاديمية مثلها لتحاكي مدلولها لما استطاعوا أن يجدوا لها مرادفًا يُعَبِّر عن هموم هؤلاء الشباب، ولما تمكّنت هذه اللفظة من الإيحاء بمثل ما أوحت به لفظة **الحَرَّافَة** من معاني عاطفية وروحانية متعلّقة بالشباب، وتحمل رمزية وإشارات سياسية واجتماعية ذات خصوصية شبابية بامتياز فالدلالة الرمزية للفظة **الحَرَّافَة** حطّمت كلّ القيود والضوابط الاجتماعية والسياسية وكشفت الحجاب عن أوضاعٍ

---

[1] -عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، تونس 1986، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص31.

[2] -أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمّد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزء1، بيروت، لبنان، ص33.

[3] -André MARTINET, La linguistique synchronique, P U F, Paris 1970, P9.

[4] -مرشد ديور، مشكلات المراهقة، التربية، مجلّة تصدر عن اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، العدد49، نوفمبر 1981، ص83-85.

مزرية وخطيرة يعيشها شبابُنا وشكّلت إحراجًا وأزمة ضمير للسلطة الجزائرية، وخلقت قضية رأي عام ومعضلة سياسية حقيقية وطنيًا ودوليًا.

خامسًا-لفظ الحَرَّافَة في وسط الشباب الجزائري: الدلالات النفسية والاجتماعية

فإذا كان الكثير من كلمات اللغة عموما له معنى معجمي ثابت ليس مرتبطا بسياق أو موقف تستعمل فيه، وبالتّالي فهي ليست خاضعة للمتكلّم أو المخاطب أو زمن ومكان الكلام...فإنّ لكلّ لغة عددًا محدودًا من الكلمات أو الألفاظ التي يتوقّف معناها على الموقف أو السياق الذي توظّف فيه[1]، ولعلّ هذا هو حال لفظ **الحَرَّافَة** الذي ارتبط بالاستعمال الخاصّ للشباب الجزائري خارج الوضع المعجمي الذي وضع له أصلاً، فقد ارتبط معناه بسياق غير لغوي، سياق تتجاذبه مواقف مختلفة: نفسية، اجتماعية، سياسية واقتصادية...فقد أصبح استعماله بين الشباب استعمالا نفسيًا، عاطفيًا، ووجدانيًا، ذلك أنّ "المعنى الوجداني العام معنى مشترك بين أهل لغة ما، فبمجرّد نطق كلمات مثل أم، أب، أخ، خال، وطن...يتبادر إلى الذهن مباشرة المعنى الوجداني لهذه الكلمات، حيث إنّ الصورة الذهنية لتلك المعاني الوجدانية مشتركة بين جميع الناطقين باللغة العربية[2]، وأيضًا بمجرّد النطق بلفظ **الحَرَّافَة** في أوساط الشباب **الحَرَّافْ** ترتسم في ذهن كلّ واحدٍ منهم المعاني الوجدانية لهذا اللفظ، ومعنى ذلك أنّه بمجرّد سماعه تعرف نفوس الشباب أنّ هذا المعنى المسموع لهذا المفهوم(**الحَرَّافَة**)، فكلّما أورده الحسُّ على النفس التفتت إلى معناه وارتسم في خيالهم[3] وارتبطت به إيحاءات خاصّة، والإيحاء هو المعنى "المؤسّس على المشاعر والأفكار التي تلوح في عقل المتكلّم (أو الكاتب) أو السامع أو القارئ"[4].

وإذا كان من المعروف أنّ بنية أيّ لغة من اللغات البشرية لها ارتباط بعقلية المتكلّمين بها وبنظمهم وبحضارتهم المادية... [5]، فإنّ ألفاظها أيضًا مرتبطة بعقلية المتكلّمين بها وبنظمهم وبحضارتهم المادية، وهذا يصدق على شبابنا الذين ارتبطوا بألفاظ مختلفة تعبّر عن عالمهم الداخلي والخارجي ومن بينها **الحَرَّافَة**.

إنّ **الحَرَّافَة** كلفظ: يدخل في منظومة لغوية شبابية معجمية معقّدة وما هذا اللفظ إلاّ نموذج خاصٌّ من قائمة كبيرة جدّا من الألفاظ التي تعبّر عن مختلف الحقول الدلالية للحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية...للشباب يميزهم عن غيرهم من الفئات العمرية الأخرى، حيث يعتبر السلوك اللغوي أهم ما يتميّز به السلوك الشبابي عمومًا، وبالخصوص الجانب اللفظي إذ

---

[1] -محمّد علي الخولي، علم الدلالة[علم المعنى]، دار الفلاح للنشر والتوزيع، الأردن 2001، ص51.

[2] -المرجع نفسه، ص73.

[3] -فايز الداية، علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق، دراسة تاريخية، تأصيلية، نقدية، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق1996، ص14-15.

[4] -محمّد محمّد يونس علي، مقدّمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديد المتّحدة، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، صيف2004، ص80-81.

[5] -محمود السعران، اللغة والمجتمع رأي ومنهج، الطبعة الثانية مزيدة ومنقّحة، الإسكندرية 1973، ص65.

يمثّل صفة تمييزية خاصّة جدّا تميّزه عن سلوك بقية الفئات الاجتماعية والعمرية الأخرى، وهذه الصفة التمييزية تمثّل الإبداع اللفظي في أرقى مظاهره من جهة، وتمثّل قطيعة مع مجتمع جيل الكبار من جهة أخرى-ممّا يبيّن الشرخ الواضح بين الجيلين، وهذا ما خلق لنا فجوة أو صراع الأجيال كما يُعرف عند علماء الاجتماع -، كما تُمثّل تمرّدا على القيم المتوارثة وعلى النظام العام والسلطة القائمة مهما كان نوعها، وفي الكثير من الأحيان نقدا اجتماعيا، اقتصاديا، سياسيا، وثقافيا، للأوضاع السائدة والقائمين عليها في المجتمع الجزائري عمومًا ومجتمع الشباب خصوصًا[1]، ولهذا تعتبر وظيفة كلمات ولغة الشباب ليس مجرّد أداة للتفاهم والتواصل بينهم، بل إنّ وظيفتها كما يقول العالم الأنثروبولوجي مالينوفسكي حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم وجزء من السلوك الإنساني[2]، غير أنّ هذا السلوك يختلف عن سلوك بقية الفئات العمرية الأخرى لاختلاف الخصوصيات النفسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، ولهذا تُعتبر اللغةُ وخاصّة الجانب الإفرادي منها المُعَبّرَ الأهمَ عن ثقافة الشباب والرسالة الأمثل للاتصال[3]، حيث إنّ لغتهم وألفاظها تتوغّلان في كلّ جوانب الحياة، وهذا ما يُقصد به أنّ اللغة لا توجد من (أجل ذاتها)، وهي لا توجد أصالة من أجل (الاتصال الفكري) ولكنّها نشاط اجتماعي يخدم ما يصفه سابير (التشارك الاجتماعي)، وهي لا تفصح عن العلاقات الشخصية والقيم الثقافية والاجتماعية فحسب، بل لعلّها الوسيلة الرئيسة للإفصاح عن هذه القيم وتلك العلاقات[4] المعقّدة التي ينسجها الشباب بينهم والتي تُعبّر عن حياتهم الاجتماعية عمومًا وتطلّعاتهم للمستقبل خصوصًا، وتقدّم نقدًا رمزيًا أحيانًا ومباشرًا أحيانًا أخرى لطبيعة هذه الحياة التي يتمرّدون عليها.

إنّ من بين الذين تحدّثوا عن مفهوم الوظيفة في اللغة نذكر أندري مارتني، حيث يرى أنّ لمفهوم الوظيفة علاقة مباشرة بمبدأ اختيار المتكلّم لأدواته التعبيرية بصورة واعية، إذْ تكون الشحنةُ الإخباريةُ للمتكلّم أكبرَ محدّدٍ لوظيفة جزء من أجزاء كلامه، وبناءً عليه تكون الوظيفة من حيث الدلالة العامّة هي القيمة التمييزية التي تميّز كلامه[5]، وبذلك يعتبر لفظ **الحَرَّافَة** أداةً اختارها شبابنا للتعبير بصورة واعية عن النفور من حياتهم الاجتماعية الحالية، وطريقةً تمكّنهم الهروب من واقعهم المشحون باليأس والقهر،...فأضافوا قيمة تمييزية جديدة لخطابهم الرافض والناقد لأوضاعهم الاجتماعية ولكلّ الأوضاع السائدة في الجزائر، وهذا ما لمسته في خطاب العديد من الشباب الذين استهوتهم **الحَرَّافَة** أثناء مقابلاتي معهم في مختلف مناطق العاصمة، فلغتهم كما يقرّ علماء اللسان ترتبط بواقعهم الاجتماعي وليست واقعا ذهنيا مجرّدا، حيث تكون الكلمة فيها ذات قوّة وفعل خاصٍّ في القيام بالأعمال وإنجازها وتأديتها لدور ما، واللغة ليست

---

[1] -انظر: رضا دغبار، لغة الشباب بالجزائر العاصمة، حي باب الوادي نموذجا -تناول سوسيولساني-، جامعة الجزائر، كلية الآداب واللغات، معهد اللغة العربية وآدابها، الجزائر 1999، ص53.

[2] -محمود السعران، المرجع السابق، ص174.

[3] -عبده الراجحي، اللغة وعلوم المجتمع، دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الأولى 1434هـ/2013م، ص4.

[4] -المرجع نفسه، ص10.

[5] -André MARTINET, Elément de linguistique générale, Armand Colin, Paris 1968, p32

واقعًا ذهنيًا مجرّدا لا رابط يربطه بالواقع الاجتماعي وللكلمة أيضًا قوتها الخاصّة في أداء الأعمال وإنجازها في الحياة الاجتماعية، فهي(الكلمة) ذات تأثير فعّال في حركة الإنسان داخل المجتمع الذي يعيش فيه[1]، وهذا ما نلاحظه في خصوصية الكلمة في مجتمع الشباب، فقد فرضت نفسها بقوّة في الفضاء الشبابي وتعدّته إلى فرض وجودها في مختلف الفضاءات الأخرى كوسائل التواصل الاجتماعي المختلفة: الفايسبوك، التويتر، واليوتيوب وكذا في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة كالتلفزة والراديو والصحف وغيرها، ولعلّ لفظ **الحَرَّاقَة** خير مثال على ذلك، فقد أصبح يمثّل موقفًا من المواقف الرافضة للواقع الاجتماعي الشبابي كما يُعبّر عنه في النظرية السلوكية، واستجابات الأفراد تجاه الحالات الاجتماعية[2] التي يعيشها شبابنا من جهة والمجتمع الجزائري عمومًا من جهة أخرى، ولذا فإنّ الجماعات الثقافية الاجتماعية تستخدم اللغة كوسيلة لأداء وظيفتين متضادتين، الوظيفة الأولى هي التوحيد بين أفراد الجماعة، والوظيفة الثانية هي التفريق بينهم[3]، واللغة تُسهم إسهاما كبيرًا في البناء الاجتماعي والحفاظ على الهوية الاجتماعية للجماعة الشبابية، وبالتّالي بناء عالم خاص بها، وبالرغم كما يقول إبراهيم أنيس من اختلاف النّاس في تجاربهم مع الألفاظ والدلالات وتَكَوُّن لديهم القدرة على استيحاء الدلالة، فإنّ تجربة الشباب الجزائري العاصمي خاصّة مع الألفاظ ودلالاتها تبقى تجربة خاصّة وفريدة من نوعها، حيث بمجرّد إنتاج لفظ معيّن وانتشاره بينهم يصبح هذا اللفظ متعارفًا عليه بينهم جميعًا وتُسهم وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي وملاعب كرة القدم إسهاما مميّزا في ترويج هذا اللفظ بسرعة وانتشاره بينهم كانتشار النار في الهشيم، بل ويصبح عنصرا بارزا في منظومتهم اللغوية ويُشكّل هويتهم، بحيث تصبح الجماعة الشبابية ملتزمةً باستخدامه في كلامها حفاظًا على تماسكها وانتمائها الجمعي وبالتّالي يصبح الشباب في وسطهم الاجتماعي وثقافتهم العامّة يمتلكون اشتراكًا وتقاربًا في استيحاء تلك الدلالات[4].

وبما أنّ اللغة ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي لا يصنعها الأفراد فإنّها بدورها لا تخضع لصنع الأفراد، وإنّما هي نابعة من طبيعة الاجتماع وحياة الجماعات وما يرتبط بهذه الحياة من طبيعة العمران، أي إنّها كما يُقرّر علماء الاجتماع من نتاج العقل الجمعي[5]، بمعنى آخر أنّها تخضع لنواميس الحياة الاجتماعية، وهي ملك للجماعة وليست حكرا على فردٍ من أفرادها، لهذا فإنّ اللغة الخاصّة بالشباب الجزائري هي من نتاج العقل الجمعي للشباب وهي صورة عاكسة لحياتهم الاجتماعية بكلّ تناقضاتها، فللشباب ثقافة فرعية متّفق عليها بينهم تستخدم ألفاظا ومعجمًا لغويا خاصّا مشحونا بدلالات صقلتها تجاربهم وثقافتهم وحياتهم الخاصّة عموما يمكن

---

[1] -هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، جامعة المستنصرية، الطبعة الأولى 1408هـ/1988م ص67.

[2] -رالف فاسولد، علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ترجمة إبراهيم صالح محمّد الفلاي، الرياض 1421هـ/2000م، ص258.

[3] -المرجع نفسه، ص276.

[4] -إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو المصرية1984، ص76.

[5] -علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، شركة مكتبات عكاظ، الطبعة الرابعة 1403هـ/1983م، ص5.

أن نطلق عليه اسم اللغة الخاصّة بالشباب، ولهذا يجد أفرادٌ آخرون من المجتمع الكبير صعوبةً في فهم هذه اللغة، لأنّ استعمالاتهم الخاصّة للكثير من الدوال التي وضعوها بأنفسهم أو كانت موجودة أصلاً في لغة المجتمع قد أعطوها مدلولات مغايرة خاصّة بجماعة الشباب وقد تكون في الكثير من الأحيان مشفّرة (DES CODES) بحيث من الصعب أن يفهمهم غيرهم[1]، فانغلاق جماعة الشباب الشديد على نفسها يجعلها منعزلة عن الواقع الاجتماعي ممّا يقضي على بعض علاقاتها[2]، وفي المقابل تخلق لنفسها عالمًا لغويًا خاصًّا بها.

وإذا كانت مظاهر الحياة الاجتماعية بصفة عامّة سواء كانت سياسية، أم ثقافية، أم دينية، أم اقتصادية، أم مهنية... تضفي على اللغة طابعًا خاصًّا في مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها[3] فإنّ لغة الشباب أيضًا طُبعت بطابع خاصٍّ ومميّز خاصّة في جانبيها الصوتي والإفرادي الذين هما بأمس الحاجة إلى دراسات أكاديمية معمّقة ليست لغوية فحسب، بل في تخصّصات اجتماعية وإنسانية أخرى، حيث تلقي اللغةُ بظلالها على الظواهر الاجتماعية والنفسية والتاريخية وهلمّ جرا، وقد تُسهم في حلّ ألغاز وخفايا الكثير من الظواهر والمشكلات التي تُطرح على الباحثين في هذه الميادين والتخصّصات.

وأخيرا إنّ خلفيات ظاهرة **الحَرَّاقَة** فإنّها معقّدة للغاية لتدخّل عوامل مختلفة ومتعدّدة -كما أشرنا في السابق- قد تكون اجتماعية، نفسية، اقتصادية، سياسية، دينية، وحتّى دولية تحكمها منظمات دولية ووطنية همّها الوحيد جني المال الوسخ.

[1] -أحمد مختار عمر، علم الدلالة، بتصرّف، مكتبة لسان العرب، عالم الكتب، الطبعة الخامسة، القاهرة، 1997 ص239.

[2] -عزّت حجازي، الشباب العربي ومشكلاته، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، فبراير 1985، ص207.

[3] -علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص14.